الحياة بعد الموت من منظور قراني

بينما تسير العلوم الطبيعية في بحثها لموضوع الحياة بعد الموت وفق منهج تجريبي بحت ينظر المسلمون الى تلك التجربة الفريدة من منطلق مختلف كلياً فهم يعتمدون على القرآن كمصدر للعلم الموثوق من صحته ، ويضعون نصب أعينهم حقيقة بسيطة يؤمنون بها تتعلق بهذا الكون وما يحيط به ومن أين بدأ ، تلك الحقيقة التي توضح أن الله تعالى شأنه وهو خالق الاكوان ومانح الحياة والمقيم على حفظها دون كلل أو ملل .

ولايقف الفكر الاسلامي الذي يعتمد على آيات القرآن كأساس للاستنتاج وعلى علوم الحكمة الاسلامية كوسيلة بحث عند **الاجابة على التساؤل عن طبيعة تلك الحياة وهل ينتقل الاموات الى** القيامة مباشرة أم يسبق ذلك حساب أو عقاب ، بل يتناول الاجابة على السؤال الابسط **الذي يستوضح عن طبيعة الموت** وهل هو الفناء والعدم والانهدام أم انه تحول وتطور وانتقال من مكان الى آخر ومن عالم الى عالم ذات طبيعة أو وجود مختلف .

لقد راودت هذه التساؤلات ذهن البشرية منذ زمان طويل وجالت بخواطرها الأوهام والمنى والمخاوف في آن واحد حول ذلك المجهول القادم ، واستجابت مختلف الأقوام بطرق متنوعة فمنها من دفن موتاه مع حليهم وثرواتهم ومتاعهم القليل أو الكثير ، بينما ارتكبت اقوام اخرى تعدياً سافرا على البشرية **حينما دفنت زوجات الموتى أحياء** معهم اذ تصورت أن أولئك الاموات سيستيقظون يوما ما فيبحثون عن نصفهم الآخر !

كما حاول الفراعنة تخليد الموتى عن طريق حفظ أجسادهم بواسطة التحنيط لأجيال طويلة وأحقاب متعاقبة .

لقد بين القرآن الكريم للمسلمين بكل دقة وبساطة **الاجابة عن تلك التساؤلات** ، ودعاهم الى الايمان بحياة أبدية في الدار الآخرة ، بل واعتبر ذلك اصلا من اصول التصور الاسلامي عن الوجود والحياة والانسان ، وركنا اعتقاديا من أركان الايمان بالدين الاسلامي ، ومن ذلك المنطلق ينظر المسلمون الى من أنكر ذلك المعتقد أو تخلى عنه على أنه واقع في مشكلة كبيرة من ناحية صحة ايمانه بالدين الاسلامي .

● الموت في القرآن

ويبين القرآن بطريقته الربانية المتميزة حقيقة الموت في أربعة **عشر آية نفهم منها أنه في التصور** الاسلامي يعني الانتقال والتحول ، اذ يتحول الانسان بكل شخصيته وواقعيته الى وجود من نوع آخر وتنشأ له علاقات مع مخلوقات اخرى تشاركه في تلك الدرجة الوجودية وتتعامل معه وفق مقاييس وقوانين ذلك العالم المختلف . وقد استعمل البيان الرباني في هذا المجال وعبر عن الموت بلفظة «توفى» والتوفي **والاستيفاء كلتاهما من مادة** واحدة وهي «الوفاء» اي تحصيل الشيء بتمامه ، وكماله دون أي نقص . ويقال عندئذ أنه يستوفيه ، وتوفيت المال أي انني حصلت على المال تماما بدون نقص . فالانسان خلال عملية الموت لايفنى ويتحول الى عدم وهبا بل هو انتقال من عالم الى عالم آخر ، ومن نشأة الى نشأة اخرى حيث تستمر حياته هناك في صورة ثانية وترتيب آخر .

وقد يتبادر إلى الذهن لأول وهلة مايخالف ذلك وحسب الفهم

السائد حول الموت ، اذ يعتبر البعض أن «جسد» الانسان **ومايتعلق به هو شخصيته الحقيقة وذاتيته الواقعية ولكن التعبير** القرآني يرفض هذا الفهم اذ أن الجسد الظاهري ومايتعلق به من أجهزة بدنية لايتحول الى مكان آخر بل ينهدم ويتلاشى تدريجيا في هذا العالم ويبين القرآن الكريم أن الشي الذي يكوّن شخصيتنا **الحقيقية ويعد «الأنا» الواقعي هو** ما يعبّر عنه «بالنفس» ٠

تلك النفس الانسانية التي تعتبر قوام الشخصية الحقيقية للانسان تحمل في طياتها أبدية الانسان اذ أنها تستمر في الوجود بعد فناء الجسد الظاهري وتلاشيه ، حيث تنتقل الى درجة وجودية أعلى وأسمى من المادة وأفق الماديات ، الى عالم «ماوراء الطبيعة» فمع الموت تتحول النفس التي كانت مستقرة في ذلك الجسد المشهود الى العالم غير الحسي وغير المشهود ، وتستلم تلك **الحقيقة التي هي مافوق المادية** أي أرقى منها من قبل من وكل بها من الملائكة ٠

● **مامعنى التوفي ؟**

وعندما يعبر القرآن عن الموت باستعمال لفظ «التوفي» نجد أنه ينسب في بعض الآيات الكريمة سلسلة من الاعمال الحيوية للبشر بعد الموت مباشرة (مثل **التكلم والترجي) مما لايمكن تصوره الا بالتصديق بوجود يستمر في فعّاليته بعد توقف** الجسد عن اعماله الحيوية الوظيفية المعتادة .اذ تقول الآية الكريمة من سورة النساء.

«إن الذين توفيهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا» ٠

(النساء ٩٧)

فهؤلاء القوم الذين إستمرأوا حياة الذل ، وبقوا في بيئات فاسدة لايستطيعون لها اصلاحا ، ووضعوا لأنفسهم أعذارا متنوعة كي يعطوها سببا للراحة وتفسيرا للقبول بالهوان ، عندما تتولى الملائكة عملية موتهم أو انتقالهم وتحولهم الى العالم الآخر يستعمل القرآن في وصف تلك **العملية التي ظاهرها الفناء والعدم لفظ التوفي الذي يعني في** العربية التحويل والاستسلام ٠

وكما نرى فان الآية تعبر عن وقوع حديث بين الملائكة والانسان في اللحظات الاولى بعد وقوع الموت ٠ فهي تؤكد على أن الانسان بعد أن يرتحل من هذا العالم وهذه النشأة يقوم بالمحادثة مع **مخلوقات غير مرئية تدعى الملائكة** بعين اخرى ولسان آخر .

وتشير آية كريمة اخرى الى احد اعتراضات مفكري الحياة الآخرة وترد عليها في نفس الوقت اذ تقول :

«وقالوا اذا ضللنا في الأرض إنا لفي خلق جديد بل هم بلقاء ربهم كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم الى ربكم ترجعون »

(السجدة ١١٠)

فالشبهة التي يقولها هؤلاء المنكرون هي أن كل ذرّة من كيان الانسان تنعدم وتفنى بعد الموت ولايبقى منها أثر فكيف يمكننا العودة الى حياة جديدة اخرى ؟ ويجيب القرآن بأن هذه الاعتراضات تنشأ من حالة نفسية أو ذهنية تؤثر في الانسان وتجعله يعتقد بأنه اذا انتشرت مكونات جسده في مكان ما ولم **يبق منها أثر فكيف يمكن إحياء بدنه مرة اخرى ٠ وتؤكد الآية** الكريمة أن «الانا»الحقيقية **لايمكن أن تضيع وتفنى كما** يتصورها الانسان ،اذ انها تقع في قبضة ملائكة الرحمن الذين وكلوا بهذه المهمة . أما **التساؤلات المتعلقة بضياع أجزاء** البدن وتفرقها فقد وردت في آيات اخرى من الكتاب الكريم وأجيب عنها بأن «الضياع» المقصود

بكلمة ضللنا ، هو ضياع حسب رأي البشر لأنه شاق بل ومستحيل عليهم أن يجمعوا هذه الذرات ، ولكن الله جل وعلا بعلمه وقدرته اللامتناهية يستطيع جمعها ولا إشكال في ذلك .

● بين الموت والنوم

وربما تحاول بعض عبارات المفكرين الايحاء أنه بضياع أجزاء البدن نضيع «نحن» ونفنى ، وبعبارة اخرى أن شخصيتنا الحقيقية تفنى أيضا ويجيب القرآن أنه خلافا لظنكم وتصوركم فانها لاتنعدم بل تنتقل منذ بداية حلول الموت الى اختيار الملائكة . وتشير آيات اخر الى تشابه النوم والموت اذ أنه أثناء النوم تنقطع الصلة مابين الجسد وما حوله وتنتقل النفس الى عالمها الرحيب فنرى الأحلام ونعيش الذكريات ومن ثم نعود فنستيقظ وقلما نتذكر ماذا حدث لنا وفي الموت تستمر هذه الحالة ولاتسيقظ اجسامنا ولكن تنفتح العيون والعقول على عالم مختلف بعيد عنا ، فتقول الآية «**الله يتوفى الأنفس حين موتها ، والتي لم تمت في منامها ، فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الاخرى الى أجل مسمى ، ان في ذلك لآيات لقوم يتفكرون**»

● الزمر ـ ٤٢

هكذا يتضح لنا التصور القرآني لذلك الحدث الرتيب الذين يراه البشر من حولهم كل يوم . وبينما يبقى العلم الحديث يدقق في تفاصيل الموت وجزيئاته فيدرسه على مستوى الخلية الواحدة والعضو الواحد أو موت الدماغ مقابل موت القلب ، فاننا نرى الطريقة الربانية تبينه بشمول ووضوح لترتاح النفس الانسانية من تساؤلاتها العميقة وتتابع مسيرتها باطمئنان في طريق الأبدية الطويل ●